

من مهمل التاريخ

بناءون منسيون

في تاريخ الامبراطورية البريطانية
للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

—

تقابل الامبراطورية البريطانية اليوم محنة قاسية ، هي شر ما ابتليت به في تاريخها . ولا نستطيع أن نسبق الحوادث ، أو نحكم على المستقبل ، فإن في ذلك رجماً بالغيب وربما بالجهول ، ولكن الذي لا شك فيه أن هذه الامبراطورية الراسمة الأطراف تمسك على المحن وترداد صلابة على الحوادث ؛ وإذا كان في الماضي والحاضر دلالة على الآتي وعنوان على المستقبل ، فإن ماضي الامبراطورية وحاضرها يبشران بمستقبل تعود فيه الأمور إلى قرارها ، وترجع الأحوال إلى نصابها

ولم يسبق في تاريخ البشرية الحافل ومعرضها الملوء بالحوادث الجسام والأحداث النظام أن تجمع الملء والظروف القاسية تربة خمسة ألف ألف (٥٠٠ مليون) من أناس مختلفون في العقيدة، ومختلفون في لغاتهم وألسنتهم ، ومختلفون في ألوانهم ، قوام جميعاً سقفاً واحداً وبناءً متاسكاً : تؤلف المصالح المشتركة والمعواطف المتحدة بينهم

ولقد قامت في التاريخ امبراطوريات عظيمة : كالامبراطورية الرومانية ، والامبراطورية المصرية القديمة ، والامبراطورية الإسلامية ؛ ولكنها جميعاً انتهت ما ينتاب للكائنات : قطويت أخبارها وضاعت مقومات وجودها ، ولم يبق منها إلا ذكر يتردد في أسفار التاريخ

ولكل امبراطورية بناءون اشتركوا في بنائها ووضعوا فيها اللبنة فوق اللبنة ، والحجر فوق الحجر ، حتى ارتفع البناء واستطال في الجو ؛ وبعض هؤلاء البنائين مشهورون معروفون ترد الألسنة ذكرهم ، وتقرن أعلامهم داعماً باسم الامبراطورية التي أقاموا بنائها ورفروا رواها ؛ وبعض هؤلاء البنائين منسيون منمورون لا يهتف باسمهم لسان ولا يتردد ذكرهم على فم ، على حين تبقى أعمالهم خالدة دأمة ، لا تنتسب إلى صانع ولا تنتسب إلى مؤسس

وهؤلاء المنسيون في كل أمة ، وفي كل واد ، وفي كل ناحية من نواحي الحياة . ففي بنائى الأمم منسيون ، وفي الملء متمورون وفي الشراء والأدباء مطوبون مقبورون

وليس من الحق أن يطول الأمد على نسيان هؤلاء للناس ، وليس من العدل أن تظل أسمائهم مكتومة وحياتهم غامضة ؛ وليس مما يشرف الإنسانية أن الجور يجري على أحكامها ، وأن الحياة تدخل في تقديرها وحسابها ، فهي أعدل من تطلب عنده النصفة ويلتمس منه التقدير

وفي تاريخ الأمة الإسلامية كثير من أمثال هذا للنسيان ، كما في تاريخ غيرها من الأمم . فليس من العدل أن يذكر اسم « الحجاج بن يوسف الثقفي » في توطيد الملك لبنى أمية ونفسى عشرات غيره ممن لا يقلون عنه يداً في دعائم الفتيات . وليس من الحق أن يذكر أبو مسلم الخراساني في الدعوة للدولة العباسية ونفسى غيره ممن ساعدوا في بناء هذا الملك الذي يقول فيه الشاعر العباسي :

أصبح الملك ثابت الأساس . بالبهليل من بني العباس
نم إن في بناء الممالك وقيام الامبراطوريات عوامل أخرى تقوم بجانب العوامل الشخصية ؛ وإذا كانت هذه العوامل الأخرى تذكر في مرض البحث ومجال الدرس ويلقى عليها ضوء يكشف عن دجائها ، فإن العوامل الشخصية أحق بأن تذكر جميعاً ، وألا يطوى للنسيان واحداً أو اثنين أو جماعة منها

والذي يتبع تاريخ الامبراطورية البريطانية يجد فيها أسماء كثيرة يعرفها كل شخص ، ويردها كل لسان ، يلقنها للطفل في مهده ، ويقرأ عنها في دراسته الأولى ، ويستزيد للبحث عنها كلما كبرت سنه ، وكثر ميله إلى المعرفة ، وزاد شوقه إلى الاطلاع فهناك (رودس) وأعماله الخالفة في جنوب أفريقية ، وهناك (كوك) الملاح المستكشف الرحالة الذي راح ضحية مذامراته العظيمة فقتل بأيدى جماعة من سكان جزائر ساندويتش الوطنيين ، وهناك (وولف) للفائد العظيم الذي وطد للامبراطورية في كندا وظهر في حصار (لويسبرج) واحتلال (كويبيك) في مقتبح القرن الثامن عشر ؛ وهناك (نلسون) أمير البحر العظيم الذي جرح جرحاً بليناً في معركة الطرف الأخر ضد القرسميين فلم يمنعه ذلك أن يقوم بواجبه وهو في ساعة النزاع الأخير ، وقد حشرجت نفسه وضاق بها الصدر

وجنوده ، فقابلوا خطراً محققاً من لثم وضمه الفرنسيين لهم ، ولم يجهدوا عن أمّاكنهم ؛ أو يتزحزحوا عن مواضعهم ؛ إطاعة لأمر قائدهم . وانفجر اللفم فوات منهم عدد كثير . ومات للقائد في طليمة ذلك المدد

ولكن موتهم كانت حياة ابن بقى بدم . فقد ثبت للباقون منهم أمام أعدائهم ، ولم يلقوا سلاحاً أو يرموا عدة من عدد الحرب حتى جاءهم عدد كبير تحت قيادة أمير البحر الإنجليزي (بنجر) الذي اضطر الفرنسيين إلى الفرار وتولية الأديار وبهذه الشجاعة الأديبة الفائقة ، والتضحية الحق التي بذلها (ريتشاردز) استطاع عشرات من الجنود الإنجليز أن يهزموا عشرة آلاف جندي من الفرنسيين عن القتال ، وأن يؤخروهم حتى يجيء المدد ويتم النصر ، ويقضى على محاولة فرنسا لتستولي على أملاك الإمبراطورية البريطانية

أما (موفات) فلم يسمع به أحد إلا القليل ممن يعرفون تاريخ للكشف الإفريقي ، وابن منه مثلاً الاسم الواسع للبريطاني الذي يتمتع به ليفنجنستون ؟ والحق أن هذا الأخير قد قرر فيما قرره أن أعماله في أفريقيا كادت تكون عملاً مستحيلاً لولا أن (موفات) دلت له السبيل ، وسهده الطريق كان (موفات) من أسرة وضيعة الحال ، إلا أن ذلك لم يمنعه أن يكون أحد البنائين للنميين في الإمبراطورية البريطانية ، والحق أن بناء الأمم لا يحتاج إلى شخصيات من ذوى الحسب وأصحاب النسب ؛ بل كثيراً ما تكون الإرادة القوية والمزمنة الصادقة ، والتضحية الفائقة هي العوامل الفعالة في رفع البناء ، وإذا مجردنا من الهوى نجد أن أعظم الدكاتورين الماصرين هم من أسر رقيقة الحال ، ومن طبقات لم تبلغ مكان القيادة ، ولا عمل القيادة .

وكذلك كان (موفات) . فقد ظل يعمل في أفريقية مدة خمسين عاماً بين زنج أفريقيا . وكان أمة وحده في نشر الدعوة للإمبراطورية في وقت لم تشهد القارة السوداء فيه وجهاً واحداً من ذوى البشرة البيضاء ، والعيون الزرق .

ولقد أحبه الرحالة العظيم لفنجنستون ، ووثق به واطمأن إليه وتزوج ابنته . وكان (موفات) في البشة التي ذهبت إلى أفريقيا بعد عيشة خمسين عاماً فيها ليبحث عن حية للتأه في مجاهل القارة المظلمة [مترجمة عن انجلي ديجمت] محمد هب الفنى حسن

وهناك (دريك) « وكلايف » الذي مكّن لانتجرتا في بلاد الهند الواسعة وجعلها ملكاً للناج البريطاني . وهناك عشرات غير هؤلاء يعرف للناس من أبنائهم للكثير

ولكن من سمع في تاريخ الإمبراطورية البريطانية عن (كلسى) ؟ ومن حفظ اسم السير (جون ريتشاردز) ؟ ومن خطر على باله أن يذكر في معرض الحديث عن القارة المجهولة الأفريقية اسم (موفات) ؟

هذه أسماء ثلاثة لا أظن أن قارئاً سمع بها أو عرف بها عنها . فهي مطوية في تاريخ الإمبراطورية مسدول عليها ستار كثيف من النسيان ؛ إلى أن تناولها الكاتب الإنجليزي الكبير (آدام بوزويل) في إحدى المجلات الإنجليزية من شهور قريبة ، وعرف كيف يقدمها إلى قرائه في إنصاف بعيد عن التهويل والتهليل ، وتجنب أن يضئ عليها نوراً فياضاً من البالطة والخيال . أما (كلسى Kelsey) ؛ فقد نشأ وضيع النشأ ، فقير الأهل صرعه الجوع يوماً فسقط مغمياً عليه ، فالتقطه أحد الموظفين بشركة (هادسون باي) وحمله معه على إحدى البواخر حتى بلغنا (فورت نلسون) ، وهو بناء خرب متصدع الأركان يحيط به فضاء موحش ، وهناك قام عمل القراء على يد هذه الشركة

وكان (كلسى) غلاماً شقيلاً لا يطبع أمراً ، ولا يحترم لإرادة ، فحمل إلى الحاكم فأمر بجهده . وتقبلت عليه سنون سود اختلط فيها بالمنود في كندا وطاش عيشتهم ، وأخذ أخذهم ، إلى أن حان له وقت البناء لجد بلاده فألب الهند على الفرنسيين في كندا ، وكان الهندو يحبونه ولا يصون له أمراً ؛ فأنالوا على الفرنسيين من كل جانب وأخرجوهم ، ومكّنوا الإنجليز في السلطان وكانت التباثل تدخل في طاعته ، وتنقاد إلى زمرته بدافع من الهبة له ، وهو أول إنجليزي كشف شمال كندا للفرنسي وأضافه برمه إلى أملاك الإمبراطورية

أما (جون ريتشاردز) فكان ابن فلاح من غمار الناس لا من خواصهم . دخل في الجيش جندياً صغيراً جداً لا يؤبه له ولا يمتد به ، ثم أصبح في زمن يسير قائداً تاماً

وفي أوائل القرن الثامن عشر كان مؤمراً على كتيبة من الهند في مدينة (أليكانت) ببلاد أسبانيا . وقد كان من حظ انجرتا أن تقابل ضد فرنسا في ذلك الحين . ولكن شجاعة « ريتشاردز » وروحه المدوية القوية مرت إلى ضباطه للصغار